بين الموسيقى الشرقية والغربية

— ١ —

تقوم الآن حركة طيبة فى الأوساط الموسيقية ، غايتها النهوض بالموسيقى الشرقية الى المستوى الذى يليق بها كفن له آدابه وأوضاعه وأصوله . وكان طبيعيا أن تتشعب الآراء ، وتتنوع الأفكار ، والمدار هو الكيفية التى بها ترتفع الموسيقى الشرقية الى مكانتها . وسمعنا أثناء ذلك اسم الموسيقى الغربية تلوكه الألسن وتتجه اليه الأفكار كأنه الغاية التى اليها تتجه ، والمستوى الذى اليه ترتفع ، غير أن هناك ألسناً لم تنطق به وأنظاراً لم تتجه اليه ، بل بقيت رابضة فى وكرها لا تحيد عنه . وبين هذه وتلك تقف الفكرة الأساسية مترددة محجمة ، وإن سارت فهى خطى بطيئة متمهلة .

وقد رأيت أن أجمل فى نقط بسيطة غير مركبة ، أهم الاختلافات التى بين الموسيقى الشرقية والموسيقى الغربية ، وذلك بأن أضع أمام القراء صورة حقيقية للأصل الذى أتكلم عنه ، وأن أقسم تلك الفوارق التى بينهما تقسيما منظماً صحيحاً لتكون أمام من يطلع عليها صورة مرتبة غير مشوشة ، مع اختصارى قدر ما أصل اليه .

فمن رأى هذه الكلمة خلوا من الاباضة والشرح فليعذرنا فلسنا نكتب كتاباً ليحفظ ويكون حجة ومرجعا ، وانما هو مقال يجمع بين الفائدة والترويح ، وعلينا العبء عندما نريد أن نكتب كتابا أن نراعى الدقة جهدنا وأن نختصر فيه أو نجمل .

تنقسم الفروق بين الموسيقى الشرقية والموسيقى الغربية الى ناحيتين رئيسيتين ، الناحية الأولى : وهى الناحية العامة ، وفيها تظهر روح كل موسيقى وترتيبها وموافقتها لأخيلة وأمزجة مؤلفيها ، ومناخ البلاد التى وضعت فيها وما لها من رقى وانحطاط ، وهذه الناحية قد يكتب فيها الأديب المطلع كما يكتب الموسيقى ، ولعل الأديب يكون أكثر توفيقاً فى الشرح والوصف . أما الناحية الثانية فهى التى تتناول الناحية الفنية من بحث الأغراض التى يذهب اليها التأليف الى اختلاف الأنغام الى طرق اللحن ، ثم الى شرح الأوزان والمقاييس وما الى ذلك من أقسام تتصل بالموسيقى من ناحيتها الفنية . وهذه الناحية هى التى أرجو أن أقصر عليها عنايتى وأن أستطيع توضيحها وتقريبها الى الافهام .

الموسيقى كالأدب اللغة صورة ناطقة حية للعصر الذى وضعت فيه ، والأمة التى نشأت منها ، وتكاد اغراض الموسيقى تشابه الاغراض التى يذهب اليها أدب اللغة فى كثير من الحالات : « فالموسيقى الحماسية » هى التى توضع إما لتعبر عن عاطفة قومية وطنية أو لتثير الحمية والاقدام فى النفوس ، وهى تكون تلحينا لاناشيد كنشيد المرسليز الافرنسى ونشيد اسلمى يامصر المصرى ونشيد الجمهورية التركية ، أو تكون فى موسيقى صامتة Sans paroie كما فى « مسير الحرب » March Militaire لشوبرت أو « مسير الحرية » لصرصه ولعل هذا النوع من الموسيقى الصامتة فى الموسيقى الشرقية غث لا قيمة له لا يكاد يبعث حماسة أو يوقد حمية اذا استثنينا بعض المسيرات الحربية التركية . يلى هذا النوع من الموسيقى ، موسيقى اللهو والمراقص ، وهى التى تعزف فى الحفلات ودور اللهو والتى يرقص على أنغامها الراقصون والراقصات ، وهذا النوع من الموسيقى هو أساس الموسيقى الشرقية قديما وما زال متصلا بها الى الآن وإن كان التهذيب قد دخله فى كثير من نواحيه . أما فى الموسيقى الغربية فلتطور عكسى فبعد أن كان هذا النوع فى بدء النهضة الموسيقية راقيا فنيا من نوع الكلاسيك صار يتدهور حتى الحرب العظمى فسقط سقوطا شنيعا وأصبح خلوا من أى شاعرية أو فن والآن اتكلم عن الموسيقى الدينية فهى فى الموسيقى الغربية أساس باقى الأنواع ، فمن معابد روما وهيا كلها انتشرت الموسيقى الدينية فى العالم الغربى ، وكان رجال الدين فى أول أمرهم يقاومون تسرب موسيقاهم الى الخارج بكل شدة ، وكانوا يحافظون عليها كل المحافظة ولكنها ذاعت وانتشرت رغم كل حيطة أو صد ، وكل من حملوا علم النهضة الموسيقية كانوا فى بدء اشتغالهم بالموسيقى يدخلون الكنائس منتظمين فى سلك المنشدين أو لاعبى الارغن ولعد مضى مدة على اشتغالهم وتمرينهم كانوا يخرجون فينشرون تلك الروح التى تأثروا بها فى فجر حياتهم الفنية ، واذكر من هؤلاء النوابغ شوبرت مؤلف أوبرا فيرابراس ، فقد كان أحد المنشدين بكنيسة ليشتنتال وهاندل مؤلف (تيرو) و (ألميرا) و (وراد ميستر) كان عازفا على الأرغن فى كنيسة جويرتزبرج ونشأ هايدن فى كنيسة القديس اسطفان بفينا . وكانوا جميعا عند ما تنضج أرواحهم وتكمل فيهم بوادر النبوغ ، يتمردون على الكنيسة ويخرجون الى العالم الحر الطليق لتحلق أرواحهم فى فضائه متحررة من القيود التى فرضت

عليها فى المعابد . وأعظم القطع الدينية هى (الأوراتوريو) التى منها نشأت (الاوبرا) . أما فى الموسيقى الشرقية فكيان الموسيقى الدينية منعدم لا أساس له ، هذا باستثناء الهند والصين فان لموسيقاهم الدينية طابعا من الرهبة العميقة والتأثير ومن أكبر مؤلفيهم الموسيقيين (تاجور) . أما فى الاسلام فالموسيقى تكاد تكون بدعة لا تحليل لها وان كان هناك شيع وطرق تقيمها فى أذكارها فهى منظور اليها نظرة بغيضة ، وان كنا لا نستطيع أن نغفل ذكر (المولوية) ومركزهم الموسيقى بين موسيقيى الاتراك القدماء . وأما فى الديانة القبطية فللكنائس تراتيلها وأناشيدها ولكنها على حال من السذاجة الفطرية لا تجعل لها أهمية من الوجهة العملية وإن لم تخل من خطرها فى التاريخ الموسيقى فهى أصل موسيقى العالم اذا وصلنا موسيقى القبط بموسيقى الفراعنة . ننتهى من الموسيقى الدينية لنتكلم عن الموسيقى التمثيلية ، فهى ركن دام من أركان الموسيقى لا يشتغل به إلا من أوتى قدرة واستعداداً خاصاً ، فكثيرون من نوابغ الموسيقيين الغربيين منحوا نواة فى انواع كثيرة من الموسيقى حظا وافراً ولكنهم لما وصلوا الى الموسيقى التمثيلية رأوا أنهم لا يستطيعون أن يضربوا فيها بسهم وخير مثل لما هو (بتهوفن) الخالد فقد حاول محاولة واحدة فى الموسيقى التمثيلية هى (أوبرا فيدليو) رأى بعدها انه ليس من رجالاتها فرجع الى السيمفونى والسونات واعظم من وضع فى الموسيقى التمثيلية الغربية هو (فاجنر) إله الاوبرا و(لوهنجرين) (وذانهوزر) ومقطوعاتهم تشهد لما نقول اما فى الموسيقى الشرقية فلم يعرف هذا النوع الا حديثا ومازال فى مهده لم يشب عن الطوق . بقى امامنا بعد ذلك آخر قسم وهو قسم الموسيقى التصويرية وهو فى رأينا اجل الاقسام واخطرها ويكون عادة موسيقى صامتة تصور وتشرح مختلف العواطف والمناظر والمؤثرات ومن اوائل من بدأوا بعمل السيمفونى التصويرية (هايدن) ثم (موزارت) ثم سيدهم اجمعين (بتهوفن) وفى الحق يمكننا بوجه عام اعتبار كل انواع الموسيقى تصويرية ، اذ الموسيقى كالشعر يعبر كل بيت منها اوقصيدة عن فكرة او يصف موضوعا ، ويستثنى من ذلك (الدراسات) الخاصة وهى التى يطلقون عليها اسم " Etude " فانها تكون عادة لدراسة النغم فى دائرة قواعده واصوله والموسيقى الشرقية خلو من الموسيقى التصويرية ، وماجلها إلا دراسات للانغام ولا يمكن اعتبار البشارف والسماعيات والبستات إلا نوعا من ال etude فلا تعبر عن فكر او تصف موضوع

ولعل معترضا يقول ، أو ليس ذلك الراعى الجالس على حافة الغدير او وسط المراعى ينقل اصابعه على مزمارة وهو يرعى غنمه فيبعث انغاما هى السحر تأثيرا! اليس يصور بانغامه مايجيش بصدره من عواطف و آمال وما يتلاعب بفؤاده من أميال وأفكار ! واليس يصور بانغام مزماره ذلك الغدير بعذوبته وتلك المراعى بخضرتها ونضارتها ، وما الى ذلك من تصوير . هذا هو الحق ولكنه تصوير ساذج ضعيف إلا إن جعلنا من مصورى القرية الذين يرسمون صور عودة الحجاج وما شابه ذلك مصورين لهم خطرهم واهميتهم ولكن فى الموسيقى الشرقية الحديثة ، هناك من قام بمحاولات فى هذا النوع علها تسير الى التقدم فهى بعد فى مهدها

والآن نتكلم عن الفروق بين الموسيقى الشرقية والموسيقى الغربية من الوجهة العامة فأول مانلاحظه هو تعدد النواحى التى ذهبت الى التعبير عنها الموسيقى الغربية واقتصار الموسيقى الشرقية على نوع يكاد يكون واحدا ، ويشبه ذلك شعرا متين ، تناول فى الاولى كل ماتذهب اليه اغراض الشعر من وصف وغزل ومدح وهجاء ورثاء . . . . ، واقتصر الثانى على غرض واحد لا يتعداه من تلك الاغراض .

كذلك الامر فى الموسيقى الشرقية . لم تتعد كونها موسيقى للهو ومراقص وهى تكاد تقصر نفسها على هذا اللون فقط لا تبدله ولا تنهض عنه بينما نجد ان للموسيقى الغربية مذاهب واغراضا متعددة متلونة لا يكاد ينتهى منها الباحث . ولعل ذلك راجع كما ارى الى ان نشأة الموسيقى الشرقية لم تكن بالنشأة اللائقة بها كفن سام له آدابه ، فهى قد نشأت فى بلاد الفرس والعرب بين الموالى والقيان وفى الحانات التى كان ارتيادها محرما على ذوى المكانة الادبية . ومع ان بعضا من الخلفاء قد اهتموا بامر الموسيقى وعطفوا على المشتغلين بها فان ذلك كان ارفعوا عن انفسهم فى مجلس شراب وانس لا مجلس جد واحترام وظل الامر كذلك حتى انتقلت الخلافة الى الاتراك فابتدأت الموسيقى ترفع رأسها لتحل محلها الذى كان ينبغى لها ان تحله من قبل وكان ذلك باشتغال سلاطين آل عثمان انفسهم بالموسيقى ومارال « سوزدلار ييشروى » - تأليف السلطان سليم - خليفة المؤمنين آيه من آيات الموسيقى الشرقية .

ومما يؤسف له حقا ، ان التراث الفنى للموسيقى العربية قديما مفقود ، إذ لم تكن الحروف الموسيقية (النوتة) متداولة ، أو لعلها

كانت متداولة إلا ان ماوصل الينا منها كالطلاسم لاحل له ولابيان. وكانت النتيجة اننا لم نرث عنهم سوى الناحية الادبية وهي كما قلنا لاتشرف في قليل ولا كثير ، بل لعلها قد اثرت اثرها السيء في الأفهام.

بقيت الآن ملاحظة ثانية على الفروق بين موسيقى الشرق وموسيقى الغرب، تلك هي ضعف الاولى وخلوها ، وامتلاء الثانية وقوتها، وهذا فيما أرى يرجع لسبب لاعملكة.

ينشأ الموسيقي الغربي بين جبال وصخور وبحار عظام تمثل قوة الطبيعة وعظمتها وتهب عليه العواصف وتنقض الصواعق وترعد في سمائه الرعود فعندما تجول في مخيلته الموسيقية فكرة تراه تاثر فيها بتلك المؤثرات التي احاطت به والتي تكيفت بها عاطفته ومخيلته. فتراها في صوته الاجش القوي وفي موسيقاه الممثلة الضخمة

اما نشأة الموسيقي الشرقي فعلى ضفاف نهر عذب تسطع عليه شمس صافية وتهب من حوله نسمات تتهافت في الرقة واللطف ، وشد ما قاساه من قسوة الطبيعة وبطشها لفحة حر أو قرصة برد لاتلبث حتى يصفو الجو ويعتدل النسيم

ذلك مايحيط بالموسيقي الشرقي وذلك مايوحي اليه بفكرة موسيقاه وهذا ماترتاح الى سماع التعبير عنه اذنه وهذا سر تلك الرقة التي نشاهدها في موسيقاه وهي ليست منقصة أو عيبا ولكن الضعف هو ضعف التعبير عن الفكرة كالبيت من الشعر يصف البستان النضر والمنظر الجميل في اسلوب ضعيف وفكرة غثة وليس العيب فيها عيب الموصوف بل عيب القصور في التعبير وضعف شاعرية الشاعر

ورقة الموسيقى ليس معناها ضعفها من الناحية الفنية، بل لعلها تكون قوية كل القوة وهي تسيل رقة ولطفا ، ولعل من يسمع Romance لبتهوفن يمكنه ان يفهم ما أعنيه تماما بقوة الموسيقى ورقتها مجتمعين معا .

بقي الآن الحديث عن تركيب الانغام في كلتا الموسيقتين والاوزان والتاليف فيهما، وارجو أن تتاح لي الفرصة قريبا للكلام عنهما في اعداد قادمة من (الرسالة)

مدحت عاصم

شـــركة مصـــر لغزل ونسج القطن

بالمحـــلة الـــكبرى

تصنع أحسن وأجود وأمتن أنواع

الـكستـــور

لملابس الرجال والسيدات والاطفال

وتقدمه الى الشعب المصري الكريم

باسعار لا تزاحم

اطلبه من مصنع الشركة بالمحلة الكبرى ومن تجار المنافاتورة ومن محلات

شركة بيع المنتوجات المصرية بالقاهرة بشارع فؤاد الاول وبالموسكي وبالاسكندرية

والمنصـــورة وســـوهاج.